

عمارة القرى المبكرة في وادي سُوف

The emergence of early villages in Ouadi Souf



حسونة عبد العزيز*

جامعة زيان عاشور - الجلفة -

Hassabdo@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/10/19 تاريخ القبول 2021/12/30 تاريخ النشر 2021/12/31



الملخص:

تعتبر وادي سوف من الأقاليم الصحراوية الواقعة على الحواف الجنوبية للكتلة الأوراسية ، تتميز بمناخها الصعب وطبيعتها القاسية يغلب على سطحها ظاهرة الكثبان الرملية التي تزداد ارتفاعا في كلما توغلنا جنوبا .

عرفت وادي سوف التعمير البشري منذ عهود قديمة بحكم موقعها الوسط بين عدة أقاليم متقاربة إجتماعيا و ومتنافرة سياسيا ، فكانت بمثابة المعبر والملجأ لفئات دينية أو عرقية هروبا من الإضطهاد الديني أو التسلط السياسي وساعد ذلك على ظهور تجمعات سكانية تحولت بمرور الوقت إلى قرى وبلدات متباينة في الأهمية .

تواترت الروايات الشفهية والكتابية أسماء لكثير من هذه التجمعات السكنية التي أختفت التي نحاول في هذه الدراسة الموجزة إستظهار البعض منها وكشف اللثام عنها .

الكلمات المفتاحية: العمران؛ وادي سوف ؛ الرمال؛ التجمعات السكنية؛ القرية؛ قبيلة عدوان؛ زناته.

* المؤلف المراسل

Abstract:

Ouadi souf is one of the desert regions located on the southern edges of the Eurasian mass, characterized by its difficult climate and its harsh nature dominated by the phenomenon of sand dunes that increase in height as we move south.

Ouadi souf has known human reconstruction since ancient times because of its location between several socially close and politically dissonant territories, it served as a crossing point and refuge for religious or ethnic groups fleeing religious persecution or political domination and helped the emergence of populations that over time turned into villages and towns of varying importance.

Frequent oral and written accounts names for many of these communities that have disappeared, which in this brief study we try to conjure some of them and reveal them

key words: Urban; Ouadi souf; sand; residential communities; village; Adwan tribe; zenatah.

مقدّمة:

تضاربت الروايات حول ظروف وبداية الإستيطان البشري بإقليم وادي سوف ، تلك المنطقة الصحراوية الرملية الواقعة على الحواف الجنوبية لشط ملغيغ وجبال الأوراس والموغلّة في عمق العرق الشرقي الكبير ، وزاد الاختلاف حول أولية القرى نشأة وظهورا ، خاصة مع قلة المصادر التاريخية المكتوبة التي تتطرق إلى نشأة وتعمير وادي سوف ، وصار يطغى على الكثير من هذه الروايات طابع الأسطورة أو الخرافة، كما أن الأحداث التي عايشتها المنطقة والمتغيرات الطبيعية والمناخية أدت أو ساهمت في اختفاء الكثير من هذه التجمعات أو تحولها إلى موقع آخر، دون أن نجد أية آثار أو دلائل مادية على أماكنها الأولى.

نحاول من خلال هذه الدراسة وضع تصور لأبرز محطات العمران ونشأة القرى الأولى بإقليم وادي سوف من خلال المقارنة بين الرواية الشفهية وبعض المصادر المكتوبة و

المقاربة ميدانيا بالتنقل إلى بعض المناطق التي يعتقد أنها كانت مراكز لتجمعات سكانية، بهدف الكشف ولو بمقدار قليل عن بدايات التعمير في هذا الإقليم الصحراوي.

المبحث الأول: ظروف التعمير

يعتبر الفعل العمراني في روحه فعل إرادي مبرمج له ضوابط وغايات تتجلى في قيمته الوظيفية والثقافية والتاريخية داخل المجتمع حين تتجسد للإنسان قيمته وكرامته، و لقد تعرض الإسلام إلى مفهوم العمران البشري من خلال آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾¹ ويفهم من الآية أن العمران هو إسكان في منطقة معينة بهدف معين، يتطور مع الزمن إلى اجتماع بشري يتوفر على أسباب المعيشة ويسوده الأمن²، وقد حمل القصص القرآني في طياته الضوابط المنظمة لعمارة وعمران الأرض والتي تعتبر بمثابة القواعد والأسس التي يسترشد بها المسلمون منها:

- يجب أن يكون الإعمار لسد خلة الباني وحاجته لهذا البناء دون مبالغة وإسراف كما فعلت الأمم الغابرة.
- أن يكون الغرض من البناء و الإعمار هو تقوى الله سبحانه وعبادته، فالعبرة دائما بالهدف والغاية من عملية البناء لذلك جاءت فكرة بناء المساجد كأساس لإقامة التجمع العمراني.³

لقد قرن الله سبحانه وتعالى في الغاية من وجود الإنسان على الأرض بين استعمار الأرض، وعبادة الخالق الذي استخلفنا فيها وهذا بصريح النص القرآني في قوله تعالى : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۖ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ⁴

وقد حاول علماء الإسلام تفسير ظاهرة العمران فيقول ابن خلدون: "أن العمران هو ضرورة الاجتماع الإنساني"⁵ ويقول: "أنه التّساكن والتنازل في مصر أو حِلّة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش...، و من هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي والجبال، وفي الحِلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدّر للاعتصام بها."⁶

إلا أن ابن خلدون يرى أن العمران البشري أسبق من العمران المادي لضرورة الاجتماع الإنساني لذلك فهو يعتبر "وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها، بل أن العمران البدوي أصل العمران الحضري"⁷، وما يدعم وجهة نظره باعتبار أن البدو كان اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعُمرانهم من الثّوت و الكِنّ و الدّفء بالمقدار الذي يحفظ الحياة و يُحَصِّلُ بُلْعَةَ العيش من غير مزيد عليه للعجز عمّا وراء ذلك⁸ ويقول أهل الحضرة: "بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية"⁹. كما يوضح في مقام آخر: "أن أهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي و انتبازهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم دائما يحملون السلاح... يتفردون في القفر والبيداء واثقين بأنفسهم..."¹⁰، وكانت هذه مميزات المستوطنون الأوائل لبلاد سوف سواء من البربر أو العرب الذين وافدوا مع الإسلام فقد كانوا ذوي بأس معتمدين على أنفسهم لا يوالون أحدا، وهو ما يؤكد الأغواطي في رحلته سنة 1826م حين يقول "... ولا يخضع سكان وادي سوف إلى حاكم وهم يتكلمون العربية،... وأهل سوف يتمتعون باستقلال كامل، ولم يطيعوا أبدا أي سلطان ومعظم تجارهم مع غدامس..."¹¹. ولهذا السبب

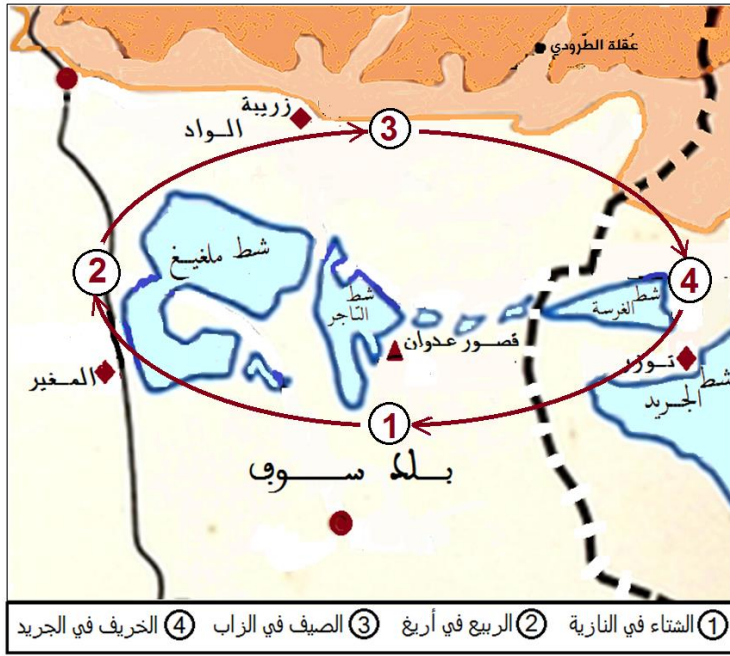
كانت التجمعات السكنية التي ظهرت مبكرا في سوف تفتقر إلى مظاهر حياة التحضر خاصة الأمن و الاستقرار.

يمكن القول أن كل هذه الآراء تنطبق على ظروف عمران بلاد سوف الأولى، فنظرا للأوضاع السياسية والمذهبية التي مرت بها المنطقة و طبيعة بيئتها الصحراوية القاسية¹² فقد ظلت بلاد سوف منذ اكتشافها كانت لفترة طويلة ملاذا للاجئين والمطاردين وبمناخ المنفى للمارقين والخارجين عن تسلط حكام البلاد المجاورة، لذلك غلبت على الوافدين الأوائل طابع حياة البداوة من حل و ترحال، فأول من سكنها من البربر أو العرب كانوا بدو ضواعن يحملون خيامهم على ظهور إبلهم يجوبون بقطعان ماشيتهم مواطن الكلاء، ينزلون في كل فصل على منطقة، حتى كان موعد دخولهم إلى أرض سوف و الاستقرار نهائيا فيها .

المبحث الثاني : عمارة القرى في وادي سُوف

رغم تأخر العمران المادي بمنطقة سوف لأن السكان الأوائل ما دخلوا هذه البلاد الصحراوية القاسية إلا فرارا من ظلم وجور السلطان الأمر الذي جعلهم يعيشون حياة الرُّحل ينتقلون بماشيتهم حيث الكلاء والمرعى، لكن الطبيعة الإنسانية غلبت فكما يقول ابن خلدون: " الإنسان مدني بالطبع، والاجتماع الإنساني ضروري، والاجتماع هو المدينة والعمران"¹³ فاستطاع هؤلاء أن يحققوا الحد الأدنى من التوافق والتعايش جنبا إلى جنب وأسسوا في العهد الإسلامي الأول تجمعات سكانية لتكون بمثابة القرى التي تجمعهم، حيث تؤكد المصادر الشفهية ظهور العديد من التجمعات السكانية المبكرة تركزت أغلبها على ريف صحراء سوف على الحواف الجنوبية للشطوط عند الطريق القديم للقوافل الرابط بين بلاد الجريد وبلاد ريف، خاصة الأماكن التي يُعتقد أنها كانت مصبات وادي سوف القديم خاصة في السيف المندي¹⁴ على شط ملغيغ و قارة الطير على شط السيال وعرق النازية على شط التاجر ومن مؤشرات ذلك العثور على بقايا فخار وبقايا أساسات بناء بالإضافة

إلى مخلفات الحيوانات التي كانت ترعى في تلك النواحي، ثم أخذت حركة نزوح السكان نحو المناطق الداخلية حيث يقول العوامر: "بسبب الكأ وقع نزاع بين قبيلة عدوان العربية وزناته كانت الغلبة لعدوان ما جعل بربر زناته يتركوا مواطنهم ويسيروا متتبعين مجرى الوادي القديم حتى موضع وادي أوراغ¹⁵ على طرفه الغربي حيث استقر بهم المقام في موقع ضوأي رُوَحَه وأقاموا منازل من الطين والحجارة في موضع "تك بنت سبت" في حوالي 600هـ/1204م¹⁶. (الشكل 01)



الشكل 01) مخطط يمثل منازل عدوان عند الشطوط قبل دخولهم أرض سوف
حسب كتاب تاريخ العدواني (إعادة تصور)

1. النّازية:

كل الدلائل تشير إلى النّازية كأول مركز للاستقرار في المنطقة ، ففي العهد الإسلامي الأول توافد العرب على منطقة سوف من بلاد قسطنطينية¹⁷ والزاب و ريغ فاندجوا مع

ساكنتها من البربر وأسسوا حوالي سنة 522هـ / 1128م¹⁸ قرية في الجردانية¹⁹ عند عيون النازية ثم قصدهم جماعة من الرهبان²⁰ حيث قصورا لهم²¹ وعرفت عمارتها ازدهارا كبيرا .

يقول العدواني أن قبيلة عدوان أنشأت خمسة قصور بالنازية وهي المدينة، المعاوي و مجور و الفلاة و أم العز²² واستقر لهم الأمر لنحو أربعين سنة²³، حتى قدمت عليهم طرود من باجة، ودخلت القبيلتان في حروب طاحنة كانت فيها الغلبة لطرود وأوشكت عدوان على الفناء حتى وصلوا عند ودية صالحة تدعى "زينب بنت تندلة" بوادي ريغ²⁴، فأصلحت بينهم ودخل ما بقي من عدوان تحت سلطان طرود وعادوا إلى قصور النازية وظلوا بها نحو عشرون عاما²⁵ حتى حضرت الوفاة شيخهم طرد بن دابس فجمع أولاده وأوصاهم بأن يحسنوا إلى بقية عدوان، وإذا هموا بالخروج من النازية، أن يأخذ كل أهله ومن معه من عدوان وأن يتقاسموا بينهم غدران الماء²⁶، ويستقر بهم في قصر لوحده حتى لا تقع الفتنة بينهم²⁷.

تقع النازية²⁸ قريبا من شط العقيلة أو التاجر على مسافة حوالي 50 كم شمال شرق بلدية المقرن²⁹ إلى الشمال من أرض سوف على طريق الزاب الشرقي، وهي اليوم عبارة ثلاث تلال رملية تتوسطها منخفضات وفيرة المرعى والكأ، كانت تتوسطها منابع ماء عذب يُطلق عليها نوازي: نازية الماء ونازية العُب (العطش) ونازية الجهلي، ويُعتقد أنها من بقايا المجرى القديم لوادي سوف الذي طمرته الرمال.

2. جلهمة :

الجُلْهَمَة، إحدى حافتي الوادي أو شاطئ الوادي³⁰، تعتبر جلهمة من أقدم مراكز التعمير في منطقة وادي سوف ، ويمكن القول أنها أقدم من قصور النازية حيث يذكر العدواني " أن سبعة رهابين من النصارى منهم إثنان من جُلْهَمَة بنوا قصورا عند عدوان في

النازية "31 ويذكر في موضع آخر" أنها كانت قرية للنصارى "32، ويذكر صاحب الصروف" أنه في القرن 5م بسبب غزو الفندال ذهب جماعة من الرومان إلى سوف واستقروا في سحبان و جلهمة "33 وفي موضع آخر يذكر" أن جماعة من الرهبان ذهبوا إلى أرض سوف ونزلوا عند من سبقوهم من الرومان بجلهمة وسحبان "34، ويذكر العدواني أن جلهمة ظلت عامرة حتى مجيء الداعية سيدي المسعود الشابي إلى سوف في القرن 10هـ/16م وبسبب دعوته على أهلها هُجرت وعُمرت تاغزوت "35.

يعتقد الكثيرون اليوم³⁶ أن موضع جلهمة كان إلى الغرب من البلدة القديمة لتاغزوت التي حلت محلها ويمكن أنها اشتقت أسمها الأمازيغي منها أي " الرُتوة على حافة الوادي" وهو نفس معنى كلمة جلهمة بالعربية.

3. الرُقُوبا:

تُعتبر الرُقُوبا مركز التعمير الأول للزُقم في اللُجّة (حسب المصادر الشفهية) ويعتقد أنها كانت تتموضع في الجهة الشمالية الشرقية من القرية الحالية ولكن لا توجد أي آثار عمران تدل على ذلك لأن الساكنة الأوائل لبلد سوف كانوا يقيمون في عرائش من القش والحلفاء أو من الخيام فهم يُعَدُّون من الضَّوَاعن الرُّحَلْ، وتذكر المصادر أن أصل الرُّقُم (اللُجّة) هي قرية الرُقُوبا التي استقر بها رجل يدعى عدوان من بني مخزوم القريشية³⁷ كان من ضمن جيش عقبة بن نافع (رضي الله عنه) في حملته الأولى سنة 46 هـ وتخلف عن العودة إلى المشرق ، و تزوج بامرأة* ورزق منها بعشرين ولدا وسكن في نواحي الشمال الشرقي لوادي سوف .

والرُقُوبا في اللغة الترسد والمراقبة³⁸ دلالة عن المكان الذي نشأت فيه القرية فهو عبارة عن نتوء صخري أو تلة مرتفعة وسط المتسع من الرمل، و هناك من يقول أن أصل الكلمة أمازيغي "تَرْقُوبت" نسبة للمرأة البربرية التي تزوجها العدواني المخزومي قبل أن يرحلوا إلى النازية³⁹، حيث ذكرت المصادر أن عائلة العدواني بعد بقائها مدة في الرُقُوبا

ارتحلت إلى النازية لتلتحق بقصور عدوان، قد يكون ذلك إثر هجاء قبيلة عدوان في مطلع القرن 7هـ/ 13م.

يُعتقد أنه نشأت قرب الرُقوبا في الجهة الشرقية من الزرقم الحالية قرية سيدي خضير، أسسها جماعة من البربر نزحت من جبل أحمر خدو بالأوراس و لكنهم غادروها بعد هجاء العرب نحو بني يزقن (أحد قصور وادي ميزاب).

إذا صحت فرضية أن الرقوبا أصل عمارة الزرقم القديمة كان ساكنتها من عرب عدوان وزناته فإن ذلك يدفعنا للاعتقاد أنها كانت معاصرة لقريتي تكسبت وتاقدامت (القدائم) وقد تكون ظروف خرابها مشابهة لهما.

4. القدايم:

هناك من يُرجع أصل تسمية القدايم إلى تاقدامت الأمازيغية وقد يكون مؤسسوها أيضا من زناته، ونجد بعض المصادر تذكر وجود قرية القدايم كحاضرة بالقرب من جلهمة⁴⁰ ولكن يبقى التضارب قائما حول ظروف تأسيسها ومن ساكنتها الأوائل، حيث يذكر صاحب الصروف أن العدوانيين صارت لهم ألفة وصُحبة مع النصاري وزناته عند إقامتهم بالنازية ولحق بعضهم بأهل جلهمة و بنوا جميعا قرية ظلت عامرة حتى حوالي 655هـ/ 1258م وكان يقصد القدايم .

يذكر الشيخ الطاهر التليلي⁴¹ في مقالته « فذلكة تاريخية »: " أن القدايم كانت عامرة و فيها نحو ثمانون زقاقا"⁴²، كما تذكر المصادر الشفهية أيضا أنه " كان بها نحو مائة و أربعون حماما !!"، لكن لا يوجد اليوم ما يثبت صحة ذلك*، و يعتقد البعض أن موقعها كان شرقي بلدة تاغزوت المحاذية لقمار من جهة الجنوب ، حيث يُروى أن بعض أهل الجهة عندما كانوا يقومون برفع الرمال⁴³ لحفر غيطان النخيل في النصف الأول من القرن الماضي وجدوا آثار بناء وقباب والكثير من قطع الفخار في تلك البقعة .

يبدو أن ظروف خراب القدايم تظل مجهولة إلى الآن، حيث نجد المصادر تذكر أنه عندما كان الصراع قائماً بين زناتة و طرود في تكسبت ، قامت طرود بجلب الحجارة المستعملة من القدايم لبناء مساكنهم قبالة تكسبت القديمة⁴⁴، وقد يكون ذلك بعد مغادرة أو طرد ساكنتها من قبيلة عدوان والذين كانت لهم علاقة حسنة بزناطة تكسبت، ومن المرجح أنه عند خروجهم أي قبيلة زناتة إلى المغرب ترك عدوان أيضاً منازلهم بالقدايم وانقطعت أخبارهم⁴⁵

يُعتقد الكثير من العامة في قمار و تاغزوت وحتى الرُّقْم خاصة ممن لديهم اهتمامات بتاريخ المنطقة أن القدايم كانت قريتهم الأولى، ما يدفعنا للاعتقاد أن القدايم كانت موجودة في موضع وسط بين القرى الثلاث ما بين اللُّجَّة والغديرة السفلى، وعندما حل العرب في مرحلة ثانية هُجرت أو خُرِّت كما حصل لتكسبت القديمة وتفرقت ساكنتها وكان أغلبهم من قبيلة عُدوان بين الرُّقْم و أقمّار و تاغزوت .

5. تكسبت القديمة:

تذكر المصادر المحلية أن أول منطقة عرفت الاستقرار في بلدة الوادي في 522 هـ/ 1129م⁴⁶ حيث سكنها قوم من بربر زناتة بعد أن تركوا مواطنهم الأولى عند النازية إثر توتر علاقتهم مع قبيلة عدوان بسبب نقص الكالأ فساروا ناحية الجنوب متبعين مجرى الوادي حتى موضع يعرف بوادي أوزاغ فأقاموا بيوت من الشعر و زرائب من الحلفاء⁴⁷ والأخشاب في ضَوّاي روحه⁴⁸ ولما طال مُكثهم هناك، جعلوا لهم قرية مُحْكَمَة البناء بالطين على الطرف الغربي للوادي وأحاطوها بسور صارت تعرف بتكسبت !!.

أصل التسمية : يذكر العدواني أنها نسبة لامرأة صالحة من بقية مرداس البربرية⁴⁹ تعرف ب(تَكْ بنت سبت) عرفت برجاحة عقلها وسداد رأيها أراد قومها أن يجعلوها ملكة عليهم فامتنعت وبعد موتها اتخذوا منازلهم عند قبرها*⁵⁰، وهناك رأي آخر يقول أن تكسبت هي

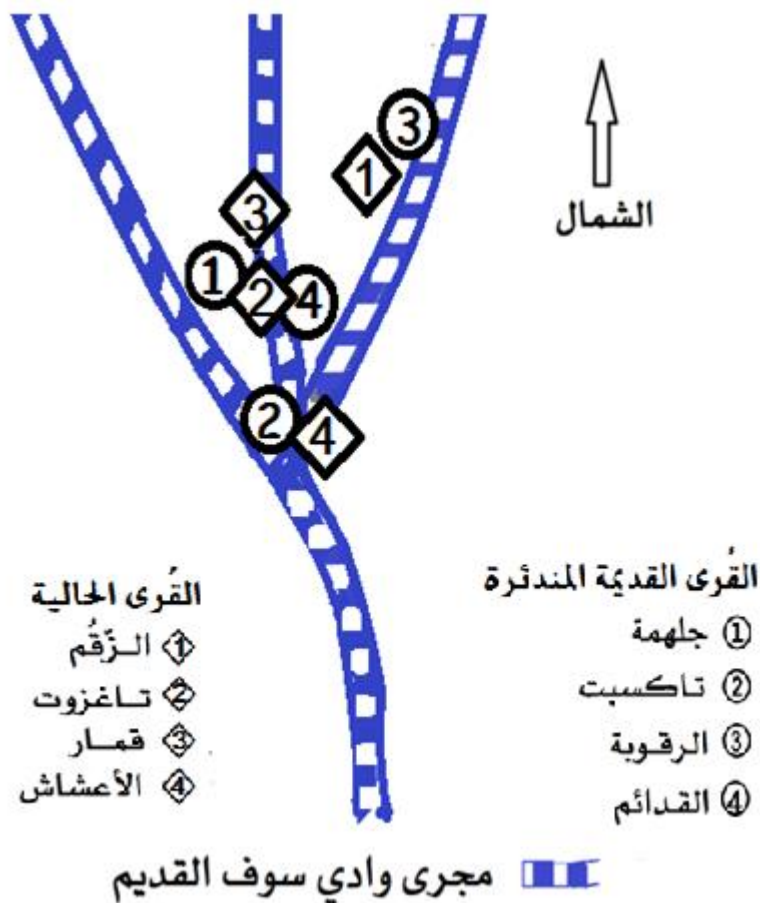
تاكسبت أو تاقصبت الأمازيغية نسبة لنبات القصب وهذا الراجح لأننا حتى اليوم نجد في الجهة الشمالية من مدينة الوادي سباح ينمو فيها القصب بكثرة ⁵¹.

كانت سُكنى أهل تكسبت الأوائل من بيوت الشعر و سقائف من الحطب والحلفاء ولما طال مُكثهم توافد إخوان لهم في حوالي 600هـ/1204م من النازية و بنوا قرية محكمة من الطين ⁵² وأحاطوها بسور عال ⁵³.

تعرضت تكسبت لعدة هجمات من أقوام من بني أبي العافية من قبيلة مكناسة البُثَّرية الذين نزلوا قبلة بلد سوف عند موقع سندروس وخرّبوا القرية ولجأ أهلها إلى الجردانية عند قصور عدوان وإلى بلاد الجريد في حوالي 610هـ/1214م حتى انجلوا عنها ثم عادوا ورمّوا بعض ما تهدم و بنوا قرية أخرى مجاورة لها ⁵⁴.

عند دخول طرود لأرض سوف حوالي 800هـ/1398م وتقاسموا غدران الماء كانت الغديرة العليا (موضع تكسبت القديمة) من نصيب قايد حيث نزل ومن معه من طرود وعدوان قرب منازل أولاد أحمد ونظرا لكثرتهم خافت زناته تكسبت على تناقص الكلاء والماء فحاولت منعهم من الإقامة قريبا منهم لكن طرود أصروا على ذلك، ما أدى نشوب قتال بين الجانبين كانت الغلبة لطرود وأحلافهم من عدوان وسادت هدنة مؤقتة بين الجانبين وصار كل طرف يتحين الفرصة للغدر والإيقاع بالطرف الآخر حتى سنحت الفرصة لطرود حين علموا أن الجهة الغربية من سور تكسبت سقطت بعض أجزائه وكانت الحراسة غير مشددة فباغتوا زناته ليلا وأجبروهم على الرحيل ناحية الغرب باتجاه توقورت و وارجلان* كان ذلك في 818هـ/1416م ⁵⁵.

بعد خراب تكسبت أخذت طرود حجارتها واستعملتها في البناء، و يعتقد أن موقع تكسبت القديمة في موضع القارة اليوم الذي يعرف بحجى سيدي عبد الله أي غرب حي ومقبرة الأعشاش (الشكل 02



(الشكل 02) مخطط تقريبي لمواقع قُرى وادي سوف المندثرة والحالية

(إعادة تصور)

خاتمة:

رغم عزلة منطقة وادي سوف جغرافيا وطبيعة سطحها و صعوبة مسالكها بسبب طغيان الرمال على أغلب مساحتها فإن المصادر التاريخية تؤكد أن المنطقة عرفت

الإستيطان البشري مبكرا منذ عهد المسيحية الأول . ومنذ دخول الإسلام إلى بلاد المغرب شهدت أرض سوف هجرات متواترة من جهات مختلفة فتجدد عمرانها وتزايد سكانها ما ساهم في نشأة القرى وتكاثرها حتى قال عنها صاحب الصروف بـ " بلاد الألف قرية " دلالة على كثرة تجمعاتها السكنية .

ويبدو أن الإستيطان في بداياته كان بدافع اللجوء والفرار من صراعات الأقاليم المجاورة أو للبحث عن الكلاء فكان أكثر المهاجرين الأوائل ظلوعن لا يستقرون في مكان واحد ، يوتهم من الخيام أو عرائش القش ، وشيئا فشيئا عُرفت حياة الإستقرار والزراعة وظهرت تجمعات سكنية كانت بمثابة القرى المبكرة

حاولنا في هذه الدراسة الموجزة بالإعتماد على المصادر التاريخية والروايات الشفهية تلمس بعض ملامح العمران الأول ومراكزه في منطقة وادي سوف من خلال البحث في عوامل الهجرات البشرية الأولى للمنطقة والظروف التي تحكمت فيها و مراحل التوغل و الإستيطان إلى نشأة القرى والحوضر، و نرجوا أن نكون قد وفقنا في تحديد بعض معالم تاريخ وادي سوف خاصة في الحقبة الإنتقالية بين المرحلة الإسلامية و التاريخ الحديث ويبقى باب البحث مفتوحا خاصة في هذه الفترة المبكرة من تعمير المنطقة ، و ما تم التوصل إليه من نتائج يبقى نظريا يحتاج إلى تدعيم ببحوث أثرية ميدانية من جهات مختصة .

¹ سورة إبراهيم، الآية (37)

² تومي إسماعيل، العمارة والعمران في ظلال القرآن، بيت المعماريين العرب، د.ت ، ص.14.

³ يحيى وزيري، العمران والبنيان في منظور الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، ط.1، 2008م، ص.34.

⁴ سورة هود، الآية 61.

⁵ عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، 2001، ص 54.

⁶ نفسه، ص. 53.

⁷ نفسه، ص.152.

⁸ نفسه، ص 150.

- ⁹ نفسه، ص. 153.
- ¹⁰ نفسه، ص. 156.
- ¹¹ أبو القاسم سعد الله، مجموع رحلات "رحلة الأغواطي" المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر 2011، ص. 96.
- ¹² تتميز البيئة الصحراوية بمناخ قاس من حيث الحرارة العالية صيفا والبرودة الشديدة شتاء، وتربة قليلة الإنبات نظرا لقلة التساقط
- ¹³ ابن خلدون، نفس المصدر، ص. 54.
- ¹⁴ السيف المندي سمي كذلك دلالة على وقوعه على حافة الشط ما يجعل تربيته في الأسفل عبارة عن ثرى وصار العامة اليوم يقولون " سيف المنادي" بإضافة ألف
- ¹⁵ وادي أوراق أي موضع غور الماء في الرمل أو هو مَفْرَق الماء أي تفرعه بسبب ضعف منسوب الماء.
- ¹⁶ إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تع. الجليلاني العوامر، منشورات ثالة الجزائر 2007، ص 140.
- ¹⁷ قسطنطينة أختلف حولها هل هي مدينة أم إقليم، حيث نجد الإدريسي يقول: "أما تسمى توزر ولها سور حصين وبها نخل كثير وتمرها يعم بلاد إفريقية" أنظر: الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تص. هنري بيرس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، 1957، ص. 75. أما اليعقوبي فيقول: "أما أربع مدائن وهي توزر، الحامة، تقيوس و الرابعة نقطة وحول هذه المدن أربع سباح تليها إلى الجنوب مدائن نفزاوة" أنظر: اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية بيروت، (د.ت.ط. ص. 188.
- ¹⁸ إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص. 138.
- ¹⁹ الجردانية أي الأرض الجرداء هي صحن منبسطة ممتدة لعدة كلمترات إلى الشمال من قرية الحمادين (المقرن) قليلة النبات والكأ.
- ²⁰ الرهبان مفرد راهب مصدره الرهينة والرهبانة وهو رجل الدين النصراني المعتكف في الكنيسة أو الدير المنعزل الناس.
- ²¹ محمد العدواني، تاريخ العدواني، تع. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 1996، ص. 91.
- ²² نفسه، ص. 143.
- ²³ يقسم العدواني فترات استقرار القبائل في منطقة سوف إلى مراحل وكل مرحلة تعد بأربعين سنة ويبدو أنه متأثر بالقصص القرآني الذي يعتبر أن سن الأربعين هي مرحلة النضج العقلي والآية 15 من سورة الأحقاف " حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ " والرسول محمد صلى الله عليه وسلم عندما بلغ الأربعين كلف بتبليغ رسالة الإسلام؟! أنظر: تاريخ العدواني، ص. 134.
- ²⁴ توجد اليوم في وادي ريغ بلدية تندلة تتبع دائرة جامعة على بعد نحو 70 كم شمالا من تقرت قاعدة بلاد ريغ.
- ²⁵ محمد العدواني، نفس المصدر، ص 102.
- ²⁶ غديرة أو الغدير جمعها غدر أو غدران وهي القطعة من الماء التي يغادرها السيل ويبقى الوحل، انظر أبين منظور، لسان العرب، دار المعارف القاهرة، 1981، المجلد 5، ص 3217.
- ²⁷ محمد العدواني، نفسه، ص 109.
- ²⁸ يمكن تحديد موقع عرق النازية بواسطة قوقل إيرث.
- ²⁹ المقرن إحدى بلديات الوادي تقع بين قريتي الجديدة وسيدي عون في الجهة الشمالية من الولاية.

- ³⁰ ابن منظور، نفس المصدر، مج. 1، ص. 669.
- ³¹ محمد العدواني، نفس المصدر، ص. 91.
- ³² نفسه، ص. 125.
- ³³ إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص. 113.
- ³⁴ نفسه، ص. 114.
- ³⁵ محمد العدواني، نفس المصدر، ص. 125.
- ³⁶ أعتمدنا في ذلك على بعض الروايات الشفهية ولا يوجد دليل مادي أو بحث أكاديمي يؤكد ذلك .
- ³⁷ محمد العدواني، المصدر السابق ، ص. 91
- * يقول العدواني : أن عدوان المخزومي تزوج امرأة عربية، بينما تذكر مصادر أخرى أنها أمازيغية وهذا الأرجح لأنه إذا كان قد تخلف عن العودة للمشرق وإذا كان متزوج فحتما من عربية أما إذا لم يكن كذلك فالمرأة ستكون من أهل البلاد المفتوحة أمازيغية الأصل والله أعلم !!.
- ³⁸ ابن منظور، المصدر السابق، مج 3، ص. 1699
- ³⁹ مصادر شفوية لم يتسنى لنا التثبت من صحتها ، ولكن قد تكون عدوان دخلت مبكرا لسوف وبما أنهم كانوا ضواغن (رُحُل) فلا نستطيع القول أنهم استقروا في موضع محدد لفترة طويلة .
- ⁴⁰ إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص. 145.
- ⁴¹ التليلي محمد الطاهر من علماء المنطقة المخضرمين، ولد سنة 1910 في ظل الاستعمار، ونشأ في كنف الحركة الإصلاحية، عاش العديد من علماء البلدة، عُرف بدوره الإصلاحي، شهد مرحلة الاستقلال له عدة كتابات في الفقه والتاريخ منها كتاب مسائل قرآنية ، توفي سنة 2002م.
- ⁴² التليلي محمد الطاهر، " فذلكة تاريخية عن منطقة سوف"، تقدم أبو القاسم سعد الله ، مجلة العرب ج. 11 و 12، الرياض 2002، ص 543..
- * توجد عدة مناطق في سوف بحاجة إلى عمليات للتنقيب والبحث الأثري للكشف وتأكيد أو نفي الكثير من الروايات الشفهية.
- ⁴³ مصطلح يستعمل للدلالة على عملية حفر غيطان النخيل ورفع الرمل من وسط الغوط لتركيمة على أطراف الغوط لتشكيل تلال تحيط بحقل النخيل تحميه من الرياح العاتية ويسمى العامل " رافع الرمل" .
- ⁴⁴ إبراهيم العوامر، المرجع السابق ، ص 161.
- ⁴⁵ نفسه ، ص 146.
- ⁴⁶ نفسه ، ص 137.
- ⁴⁸ ضوأي روحه: أي الذي يُصْادِر ضَوْءًا من تلقاء نفسه وقد تكون ظاهرة فلكية وحسب المصادر الشفهية فإن الظاهرة موجودة في قمار وكذلك في الصحراء عند النازية، ويذكر أهل الواد أن المنطقة المشار إليها تقع إلى الغرب من حي سيدي عبد الله الحالي.

⁴⁹ مرداس قبيلة عربية من رباح ويذكر ابن خلدون أنه وقع تحالف بين القبائل العربية والبربر بزعماء بنو غانية ضد الدولة الموحدية، أنظر: ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، مج.6، دار الفكر بيروت 2000، ص.187. وقد يكون العدواني يقصد قبيلة منداس من هواره الصنهاجية البربرية وهذا الراجح أنظر أيضا : بوزيان الدراجي، القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها و أعيانها ، دار الكتاب العربي الجزائر 2007، ج2، ص.16

* نشكك في صحة هذه الرواية لسببين : الأول أن العدواني ذكر قبيلة مرداس على أنها أمازيغية بينما هي قبيلة عربية ، والثاني يرجح الكثيرون أن أول من إستقر في سوف من البربر هم زناته ويعتقد أنهم كانوا إباضية و المذهب الإباضي متشدد في مسألة ولاية المرأة أو إتخاذ قبرها مزارا، وقد يكون في التسمية إشارة إلى إعتناق البربر الديانة اليهودية.

⁵⁰ محمد العدواني، المصدر نفسه، ص.114

⁵¹ يوجد بأقليم ميزاب وادي تاقصبت كما أنجز بولاية تيزي وزو سد تاقصبت على مجرى وادي عيسى سنة 2007.

⁵² تعرف سوف بوادي الرمل ولا يعرف فيها الطين اللهم إلا في السباح حيث يكون الوحل كما تتجمع على سطح أطراف السباح تكتلات خرسفية ومتبلورة من الجبس في الجهة الشمالية من مدينة الوادي .

⁵³ إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص.137

⁵⁴ نفسه، ص.139

* يقول العوامر أن زناته تكسبت كانوا على دين الرافضة انظر: الصروف ص.166، كما نجد الرحالة العياشي يصف بعض سكان وارجلان أنهم عزابة روافض ويقول أنهم طائفة من الإباضية من أتباع عبد الله ابن إباح أنظر:عبد الله العياشي، الرحلة العياشية، تح.سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر أبوظبي، ط.1. 2006، ص.116. فترى أن كلا الكاتبين يخلطون بين الشيعة الروافض الذين يرفضون الاعتراف بشرعية الخلفاء الراشدين وبين الخوارج الذين خرجوا عن جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعدم إعترافهم بالتحكيم. للاستزادة أنظر: سعد رستم، الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات، دار الأوائل للنشر والتوزيع دمشق، ط.3، 2005، ص.64.

⁵⁵ إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص.172.